صفحة من تاريخ التطعيم

الواقي من الجدري في العراق وايران

l'Introduction du Vaccin en Mésopotamie et en Perse.

تمهيد

كان الجدري معروفا في الشرق منذ عهد عهيد واما في بلاد الغرب فلم يشعروا به إلّا في القرن الخامس او السادس للمسيح وكان الوباء المذكور كثير الفوائل شديد الوطأة على الناس لان الوسائل الواقية او الشافية منه كانت مجهولة في اغلب انحاء المعمور وان كان في بعض الاقطار شيء منها فانه ما كان يفي بالمراد دائما وعليه يعود الفضل العظيم لايجاد وسيلة واقية منه كل الوقاية الى الطبيب الانكليزي المدعو ادورد جنر Jenner الذي اذاع كشفه الخطير سنة ١٧٩٦ بعد ان درسه درسا صادقا مدة عشرين سنة. ولا حاجة الى القول ان ذلك الكشف كان التطعيم بمحصل من ضرع البقرة المصابة بمرض وبائي اسمه بالانكليزية Cow pox اي جدري البقر واما المحصل فيسمى Vaccin من الكلمة اللاتينية Vacca اي البقرة (١).

التطعيم في بغداد ونواحيها

قبل منتصف سنة ١٧٨٦ قدم بغداد شاب ارمني كاثوليكي من اهل الاستانة اسمه اوانيس وشهرته مراديان للقيام بامور تجارة آل صوفيالي المقيمين في العاصمة المذكورة وهم ايضا من الارمن الكاثوليك وكان يومئذ في بغداد واحد منهم يدعى

(١) ان عقيلة السيد منتاكو Montagu السفير البريطاني لدى الباب العالي اذ كانت في الاستانة سنة ١٧١٥ رأت ان اهل تلك المدينة وغيرها كانوا يستعملون نوعا من التلقيح للوقاية من الجدري فاستحسنته ولقحت ابنها ولما عادت الى بلادها بذلت جهدها في تعريف ذلك التلقيح ونشره بين جميع طبقات الشعب الانكليزي فنجحت في مسعاها وعندي انه ربما اتصل خبر هذا التلقيح بعد حين الى جنر فنبه في عقله فكرة كشفه المشروح اعلاه ويروى ايضاً ان قسما من الارمن كانوا يطعمون اولادهم زبيباً محشوا بقليل من صديد بثور الجدري للوقاية منه . وقد ذكر السائح الايطالي مستيني في كتاب رحلته الى بغداد سنة ١٧٨١ في صحيفة ١٧٢ ان اهل الزوراء قاطبة كانوا يلقحون انفسهم بانفسهم واليك نص كلامه بالفرنسية Toul le monde se fait inoculer. ماذا يريد بهذا الكلام هل يا ترى التلقيح الشائع في الاستانة لم يغيره فالله اعلم .

خواجا ساراغا . فهذا لدى عودته الى وطنه عهد الى اوانيس جميع امور تجارة الصوفياليين ومهامها بعد ان اتخذه شريكا لهم في الارباح والخسائر . غير ان اوانيس لم يلبث ان انفصل عنهم فاستقل بتجارته مع اخويه يوغوص وفيلبس وكان احدهما في كلاستانة والاخر في مدراس (الهند).

فنجحوا في اوائل امرهم نجاحا يذكر لكن ما عتم ان اخذ نجم نجاحهم بالنزول والافول حتى اضطر اوانيس الى ان يخدم القنصلية الفرنسة في بغداد ترجمانا ليفوز بحماية فرنسة .

وفي سنة ١٨١٩ دعاه محمد علي ميرزا نائب الشاه في كرمانشاه ليكون في بلاطه اول التراجمة وفي تلك السنة عينها نال من فتح علي شاه وسام الاسد والشمس (شير وخور شيد) من الطبقة الثانية وبعد ان قام هناك بوظيفته احسن قيام مدة تقارب اربع سنوات مات النائب مسعود فغادر حينئذ كرمانشاه واخذ يجول في بلاد ايران حتى حط الرحال في جلفا وهناك توفاه الله سنة ١٨٣٢ عن امرأة هي تريزية ابنة خريسطوفور بن انطون اتري Antoine الطبيب الافرنسي وعن ابنين وهما سيزار وآشيل وليس اليوم باق من نسله .

وكان اوانيس من ادباء زمانه المعدودين يحسن الارمنية والايطالية والافرنسية والتركية والفارسية وشيئا من العربية فضلا عن المامه باغلب علوم عصره ولا سيما التاريخ والسياسة وكان يتعقب عن قرب وعن بعد سير الامور السياسية شرقا وغربا ويتتبع تقدم العلوم في بلاد الافرنج وظهور المكشوفات العلمية فيها والاختراعات الفنية ولا غرو من ذلك اذ كان قد ربي منذ حداثته في البندقية ودرس على الاباء المخيتاريين .

فعلى يد رجل هذه ترجمته وهذه صفاته دخل بغداد لاول مرة التطعيم الواقي والتام من الجدري طبقا لطريقة جنر لكن الله يعلم بما كابده من الاتعاب وعاناه من المشاق في سبيل الوصول الى اقناع اهل بغداد بقوله لهم والاقدام عليه وذلك بسبب الاوهام السائدة وقتئذ على العقول ولا سيما لان التطعيم كان يظن انه مخالف للقدر وعليه فلا عجب اذا ما حبطت في اول الامر مساعي اوانيس بالرغم من المعاضدة العظيمة التي عاضده بها الدكتور شارت Shurt طبيب القنصلية

الانكليزية في بغداد .

بيد ان اوانيس عاد سنة ١٨٠٩ فافرغ قصارى جهده في تذليل العقبات وتشتيت الاوهام التي حالت قبلا دون غايته ففاز اخيرا بامنيته وتكلل مسعاه بنجاح باهر حتى ان مفتي بغداد الكبير وهو احمد افندي الحصيف الرأي رضي بان يتطعم اولاده وحفدته الستة وذلك بعد ان طعم اوانيس ابنه سيزار بحضور كثير من ارباب الاسر وكان اكبر مؤازر له في مساعيه هذه الثانية الدكتور هين Hyne خلف الطبيب شارت المار ذكره .

فمثل مفتي بغداد شجع الناس على اختلاف مللهم فدفعهم الى الاقدام على التطعيم بلا خوف ولا تردد حتى ان اوانيس تمكن من ان يطعم مسع امرأته تريزية اكثر من خمسة آلاف واربعمائة ولد في مدة تسع سنوات دون ان يحدث حادث يقلل ثقة الناس بالتطعيم وكان تطعيم الثلثين من العدد المذكور مجانا .

ولم يكتف اوانيس بتعميم التطعيم في بغداد ونواحيها بل رغب كل الرغبة في نقله الى غيرها من البلدان فادخله الموصل على يد القس بطرس اخطل الموصلي ابن الاسقف بشارة السرياني وذلك بعد ان عاد في بغداد اصول التطعيم ودربه على طريقة اجرائه مدة بضعة اشهر ولما عاد الى الموصل زوده كتابة بمدة تعاليم فنية وكان يكاتبه من وقت الى اخر بالايطالية لان الكاهن الموماً اليه كان قد درس حينا من الزمن في المدرسة الاوربانية في رومة .

وكذلك عرف بالتطعيم اهل اربوان على يد الخوري الارمني غيرالكاثوليكي المسمو ورتانيس وارتابيت الذي اخذ عن اوانيس اصول التطعيم فاتقنها اتقانا لا مزيد عليه .

التطعيم في ايران

بعد ان اقيم اوانيس ترجمانا في كرمانشاه سعى سعيا حثيثا لنشر التطعيم بين ظهراني الايرانيين ايضا فكان النجاح رائده حتى طعم في مدة اقامته هناك اكثر من خمسمائة ولد من جملتهم ٢٠ اميرا واميرة من الاسرة القاجارية المالكة في فارس ولما بارح كرمانشاه طفق يطعم مجانا في البلاد التي كان يمر بها ومنها همذان وطهران وكاشان واصبهان وجلفا وكان يرسل باسماء المطعمين الى

الدكتور ماكنل Macniel طبيب السفارة البريطانية في طهران اجابة لطلبه .

وفي اثناء اقامته في جلفا عاد اليها احد اهلها وهو متاطا كان (اي باق) ابن دير اسطيفان المعلم الهمام وتلميذ الدكتور ريغ Reigh وكان قد قرر ارساله الى بغداد ليكون معلما هناك غير ان موانع شتى حالت دون الذهاب اليها ففوض حينئذ اليه امر التعليم في جلفا وابتدأ بالعمل حالا بعد ان قدم اليه اوانيس معلما جديدا من احسن نوع .

هذا في جلفا واما في بغداد فان اوانيس قبل سفره الى كرمانشاه كان قد عهد الى امرأته بشؤون التعليم فيها والسهر على حسن اجرائه غير ان البعض من الجهلاء والجاهلات اخذوا يتدخلون في امر التعليم وهم ليسوا من رجاله فحدث من جراء ذلك ماحدث من النتائج الوخيمة التي ادت الى ازالة ثقة الناس به وابتعادهم عنه وظلت الامور على هذه الحالة الى ان ارسلت شركة الهند الانكليزية معلما على حسابها وهو محمد صالح خادم الدكتور (هين) سابقا ولكن لم يمر زمن طويل حتى ذهب ضحية لتعدد زوجاته فمات قبل اوانه وبموته حرمت بغداد معلما كفوا . فقامت حينئذ ترزية امرأة اوانيس مراديان وشمرت عن ساعد الجد بمساعدة ابنها في اعادة ثقة الناس بالتعليم واعلاء شانه ولو ان الامر كان يكلفها احيانا تضحيات بما لها .

ولما كانت سنة ١٨٤٧ انفذ السلطان عبد المجيد امرا بارسال راغب بك حاجبه الثالث الى بغداد وغيرها من الولايات العثمانية ليفقد اموالها وينظر في شؤونها ويهدي في الوقت عينه سيفا (١) لمحمد نجيب باشا والي ولاية بغداد تقديرا لحسن ادارته وحكمه في هذه الولاية فدخل راغب بك الزوراء في ٢١ آذار من السنة المذكورة ومعه طبيب ارمني اسمه بارونالك فروخ خان كان قد رافقه من الاستانة ليداوي المرضى ويعلم الاولاد مجانا في جميع المدن والقرى التي على طريقهما وما وطئت قدماه مدينة السلام حتى اخذ يقوم بوظيفته المعهودة اليه بهمة لا تعرف الملل في جهات عديدة من العراق ثم قفل راجعا الى الاستانة .

ومن ذلك اليوم لم ينقطع التعليم من العراق بل زاد شأنا وانتشارا فكانت

(١) سيفا مرصعا وحلة ملوكية (وبالتركية قليج وقفتان) .

تزاوله عادة وغالبا القوابل وبعض النساء المسنات فضلا عن الرجال (١) واما طريقة التطعيم المألوفة فكانت قائمة بنقل الطعم من ذراع مطعم الى ذراع غير مطعم ولم تزل تلك الطريقة جارية الى يومنا هذا بجنب استعمال المصل البقري الذي كان يبطل سواه .

الشهادات

كان من عادة اباء الاولاد المطعمين ان يسلموا احيانا الى اوانيس مراديان شهادات ناطقة بفضله وشكره وبمنافع التطعيم وعدم مضاره وقد ورد ذكر ثلاث منها : الاولى لمفتي بغداد المتقدم ذكره والثانية لامراء كرمانشاه القاجاريين والثالثة لقسم من نصارى بغداد لم تزل محفوظة عندي واليك نصها بالحرف الواحد وبتواقيع اصحابها وقد اضفت الى هذه الشهادة شيئا بين عضادتين ايضاحا للامر :

نقر ونعترف نحن المحررة اسماءنا بذيله ولاجل اننا صرنا مطلعين نشهد ايضا على ان علم تركيب رفع الجدري المسمى بالفرنجي واكسين ادخله في بلدنا هذه فقط الخواجه اوانيس مراديان الاسلامبولي . صحيح من مدة زمان كل انسمع هاهنا خبر هذه المعرفه المحدثه جديدا في قرنكستان ولكن ولا واحد منا ما كان يتجاسر ان يقدم ولده الي التجربة بذلك . غايته الخواجه اوانيس المذكور بجهد كلي بالحث والنصائح وتم بتاريخ سنة ١٨١٠ مخصوص لاجل ولده جاب اصل مادته واماما ركب لولده وتم باستماعنا فعله التركيب وبالسلامة معاقاته من ذلك كل منا مزمنا وتجاسر قلبنا وفعلنا لاولادنا ايضا والان في بلدنا هذه ممارس هو من جميع الطوايف من مثال ولده وحشه وجهده وهذه الورقة مخصوص لاجل تقدمة المنوبة حررناها وعطيناها له بشهادة الحق بحيث من تاريخ اربعة سنين الى الان كلمن استعمله فما عاد ظهر به جدري الطبيعي ابدا . ربنا يجازيه له ولاولاده لاجل هذا الخير الكلي الذي ادخله وعلمه في هذه بلدنا . حرر في بغداد في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٨١٤ .

(١) ومن المشتهرات بين النساء حلانة الموصلية ابنة عبد الله القارة التي نبه اسمها بسقاية الجدري — والثانية مريم بنت فرج الموصلي المعروفة في بغداد بالحلاوية لمزاولتها هذه المهنة زمناطويلا في الحلة وانحائها .

شهد بما فيه شماس سمعان بطرس ولد الياس غنيمة وكيل الكلدان (١) .

وهنا ختمه بالكلداني

ويلي ذلك : داود ولد الياس غنيمه : يوسف ابن جبره (وهو المعروف بيوسف بغداد يفراني) : وعبد الاحد ابن الياس غنيمه : وانطون بشاره [وهو جد رزوق كيوع] : وانطون اوفي [وهو اخو حنا اوفي من ام اخرى] : اندريا ابن يوسف بشاره [وهو جد آل اندريا] : وماتويل عبدالمسيح [وهو اخو يوسف مسيح] : وبولص ابن يوسف كرجي [وهو جد الخواجا يوسف المعروف بابي الشعر الاحمر] : وجرجس ابن عبدالله [وهو على الارجح والد ابراهيم طبره] : ويوسف ابن عبدالله [وهو على الارجح والد توما لوقا] : وتوما ابن يوسف عبدالله [وهو على الارجح توما لوقا] : ونعمان ابن حنا صايغ [وهو من اهل الموصل] : ويوسف عبدالله حلبي نمنومي] وهو من اقارب بيت جرجي] : وعبد النور حبش . ويوسف حبش : وحنا ولد شماس حبش [وثلاثتهم اخوة ولا نسل اليوم إلا لعبد النور اي بيت نوري] وعبدالله ابن الياس ترزي باشي [وهو عبوش عم الياس والد المرحومة سيدي قرينة الكونت بجرائيل اصفر] : وكوركيس ابن يوسف فرج : وعبد الاحد ابن توماس [وهو بعوش] : وعبدالعزيز ابن عبد المسيح [وهو من اقارب بيت قشا] . ونعمان دنحا : وداود ابن انطون جوخجي : ويعقوب بن انطون جوخجي [وهما من اقارب بيت اوساني ولا نسل لهما اليوم] .

واليوم ايضا بعد ان مر على كتابة هذه الشهادة اكثر من قرن يسجل تاريخ العراق بمزيد الشكر تلك المأثرة الحميدة لاوانيس بن بدروس مراديان واسرته الكريمة .

دير نرسيس صائغيان

---

(١) ان الشماس سمعان هو والد يوسف غنيمة المشهور في بغداد بالشاهبندر وهذا هو جد صاحب المعالي يوسف غنيمه بن رزق الله وزير المالية الحالي في العراق واما الوثيقة فكانت شايعا فانه اهمية كبيرة تختلف كل الاختلاف عما يراد بها اليوم عندنا ودامت تلك الوثيقة محفوظة في بيت غنيمة الشريق قدما في العراق وذلك قرونا من الزمان بناهيك فرنا ونصفا فوق ٢